-٢-

محمد كرد علي
من الرواد المعاصرين للنهضة الاسلامية و العربية
١٨٧٦ - ١٩٥٣

تنبأ فى طفولته بأنه يتمنى ويريد أن يكون فى كبره من العلماء. فإن والدته أخذته معها وهو فى السادسة من عمره لتزور أهل الشيخ محمد الطنطاوى، بحى القيمرية فادخلوهما قاعة وقع فيها نظر الطفل على رفوف فى الحيطان صففت عليها مجلدات فشهق الطفل مما رأى متعجباً وهمس فى سمع أمه: ما هذا الذى أرى على الرف ؟ فأجابته: هذه كتب يقرأ فيها العلماء.... فأجاب أمه: وأنا أحب أن أتعلم هذه الصنعة فى كبرى.

أبوه عبد الرزاق جاء جده من الكرد الايوبيين فى سليمانية العراق وأحب دمشق فأستقر فيها وعمل فى بادئ الأمر خياطاً ثم زاول التجارة فربحت تجارته واشترى مزرعة بجرين فى الغوطة كان يتعهدها

obeikandl.com

بعنايته وتكفيه غلتها فى معيشته وأمه شركسية من القفقاس فهو آرى الدم، عملت فى طبيعته وصفته عوامل البيئة الاسلامية والثقافة العربية والغربية فهو فى تعدد الانتماء شبيه بأحمد شوقى الشاعر وقاسم أمين الداعى لتحرير المرأة المسلمة والعربية فى مصر والبلاد العربية وقديماً كان ابن سيناء وابن الرومى من متعددى الانتماءات.

أدخله أهله إلى مدرسة « كافل سيباى » الابتدائية وعمره لا يتجاوز العاشرة ليتعلم-القراءة والكتابة ومبادئ العلوم، وفى مدرسته رأى ذات يوم شيخاً ما كان قد رآه من قبل يوبخ تلميذا بلهجة مغربية ويضربه بذيل جبته فعجب محمد كرد على لصورة الغرب بالجبة وسأل عن الرجل فقيل له هذا هو المفتش وهو أعلم من معلمنا ويستطيع أن يعزله... فقال فى نفسه ليتنى أكون مثله وما كان هذا المفتش إلا أستاذه وصديقه [من بعد] الشيخ طاهر الجزائرى وأخذ كرد على يستزيد من اقتناء الكتب التى أحبها واشترى له أبوه عبد الرزاق جملة صالحة مما كان يباع فى الجامع الأموى بعد صلاة الجمعة فى مزاد التركات فصحب الفتى البافع الكتب ولازمها وقرأ فيها الثقافة العربية والاسلامية ومال إلى قراءة الصحف اليومية والمجلات الشهرية وسنه لايتجاوز الثالثة عشرة، وحين أنهى الابتدائية دخل المدرسة الثانوية ثم اللعازارية وكانت لغته العربية والفرنسية تؤهله لكى يطالع الصحف باللغتين واشترك فى جريدة فرنسية أسبوعية كانت تصدر فى باريس وتعلق بمطالعة جريدة

« لسان الحال اللبنانية » لأن فيها أخباراً طريفة مترجمة عن الانكليزية كما كان يطالع بعض الصحف التركية وبخاصة المجلات الأدبية والتاريخية فنشأ فيه ميل عميق إلى الأدب والصحافة والثقافة وما كاد بلغ السادسة عشرة من عمره حتى أخذ ينشر أخباراً ومقالات فى الصحف المحلية والمصرية.

وراح يتلقى العلم على فريق من أهله ووطنه وفى طليعتهم الشيخ طاهر الجزائرى والشيخ سليم النجارى والشيخ محمد المبارك ونما فى نفسه حب العربية وآدابها وأحب الكتب القديمة التى كان لشيوخه الفضل فى تحبيبها إليه، وتعريفها وتيسيرها فجمع منها محمد كرد على عدداً كبيراً من مجلدتها بالرغم من ندرتها وقد وصف لنا ثقافته قائلاً « وأهم ما أولعت بمطالعته بعد درس المطبوع من كتب الأدب العربى وجانب من المخطوط الذى عثرت عليه من كتب الفلاسفة وعلماء الاجتماع ـ قرأت بالفرنسية أهم ماكتب فولتير ومونتسكيو وروسو وسبنسر وقولين وتين ورينان وسيمون وتدارست المجلات الفلسفية والاجتماعية والأدبية باللغة الفرنسية وجريت منذ نشأت على أن أقرأ أكثر مما أكتب وقلما كتبت موضوعاً لم أدرسه ولم تتشربه نفسى وقال: وإنى ما أزال أذكر ما كنت أكثر من مطالعته وحفظه أيام تعلقى بالأدب من مقامات الحريرى ورسائل الخوارزمى والصابى والأصفهانى والزمخشرى، ولما كتب لى الاطلاع على الآداب التركية والفرنسية أخذت أبحث عن كتب بلا تكلف مثل كتاب الجاحظ وابن المقفع وعبد الحميد الكاتب وسهل بن هارون وأبى حيان التوحيدى »

وتأثر كرد علي بالقرآن الكريم وطالع طرفاً صالحاً من الحديث وحفظ المعلقات وعدداً من دواوين العرب وحفظ نصف ديوان المتنبى وعدة قصائد لابن أبى ربيعة والبحترى وأبى تمام والرضى وابن الرومى والطغرائى والمعرى وعلى بن عبد العزيز الأرزجانى وغيرهم من الشعراء المحدثين والمخضرمين.

وعمد إلى الكتابة المرسلة دون أن يتكلف الاسجاع وأصبح حجة فى بحوثه ومؤلفاته. وشهد صديق رافقه فى وزارة المعارف وفى المجمع العلمى وعايشه وعاصره فى دمشق هو الشاعر شفيق جبرى الذى عين فى عهد الوزير كرد علي رئيساً لديوان المعارف قائلاً « لقد وقفت على كثير من خصائص كرد على ومنازعه وطبعه وكثيراً ما كان يطلب من أصحاب المكتبات الفرنسية كتباً فى أكثر الموضوعات وبخاصة موضوعات الاجتماع وما أذكر أنه كان يمر عليه شهر واحد دون أن يطلب كتباً جديدة من باريس للمطالعة، ومن روما ولندن. ولم يقتصر كرد علي، على المطالعة وإنما أضاف إلى نهمه للعلم والمعرفة ما أكمله بالأسفار والرحلات إلى الاسيتانه ومصر ولبنان وقد رحل إلى أوروبة عدة رحلات وألف بعد عودته « غرائب الغرب » زار فرنسة ووصف ريفها ومدارسها وحضانة الأطفال وزار علماء الاستشراق فى بلجيكا وهولانده وزار مكتبة لندن كما زار جامعتى اكسفورد وكمبردج وكان يحث العلماء والمتعلمين من أبناء الأقطار العربية والإسلامية على الاستزادة من العلم والبحث أو التأليف وكان للشيخ طاهر الجزائرى أثر كبير فى نفس محمد كرد

علي فقدم للقراء عنه ترجمة واعية. ووفاء لحق هذا المعلم عليه توج كتابه « كنوز الأجداد » بسيرته.

كان يكره الاستعمار ويحب الحضارة ويحث على تعلم اللغات الأجنبية ويكره السياسة العثمانية ويقول إن استيلاء الترك على أرض العرب أضر بها وأزال حضارتها وغير أخلاق أهلها ولم يكن ينكر على الأتراك أدبهم فى عشرتهم ونظامهم فى بيوتهم.

وكان محمد كرد علي يحب من الأمم الحديثة كل أمة ترفق بالمسلمين ويحب الناس الطيبين وكان يقول وهو على فراش الموت « زوروا رجالكم واغفروا لهم بعض زلاتهم ».

كان من الرواد الذين عبروا عن دعواتهم عن طريق الصحافة العربية فى سورية. وكان أول من أنشأ جريدة يومية فى دمشق هى « المقتبس » أصدرها عام ١٩٠٨ على إثر عودته من مصر بعد إعلان الدستور العثمانى ظناً منه أن عهد الاستبداد قد زال، ويرتقى تاريخ عمله فى الصحافة إلى سنه المبكره من عمره فقد ترك الوظيفة فى قلم الأمور الاجنبية سنة ١٨٩٨ ، بعد أن سلخ فيها ست سنوات وما كان عمره يومذاك يزيد على اثنين وعشرين عاما. وكان دؤوباً على قراءة الصحف المصرية ومتابعة القراءة للصحف التركية والفرنسية وحين وجد من نفسه القدرة على الكتابة أخذ يراسل الصحف ويكتب المقالات وينشرها باسمه وقد دخل مصر عام ١٩٠١م قاصداً زيارتها والتعرف إلى معالمها وآثارها ورجالاتها وبخاصة الإمام محمد

عبده وتيمور وأحمد زكى وكان ينوى أن يقضى فيها أياماً ثم يزمع السفر إلى باريس للدرس والاطلاع وقد عرض عليه صاحب جريدة الرائد المصرى بواسطة صديقه محمد رشيد رضا العمل فى جريدته فأعتذر لازماعه السفر إلى باريس، وعرضت له أمور فى دمشق اضطرته إلى أن يفضل البقاء على مواصلته السفر إلى فرنسة وتقبل رئاسة التحرير فى الرائد، ولما انتشر وباء « الكوليرا » فى القطر المصرى عام ١٩٠٢ رجع إلى دمشق، واغلقت « الظاهر » لافلاس صاحبها فاشتغل بالترجمة لصاحب « مسامرات الشعب » وترجم له روايتين فى مدى ثلاثة أشهر وعلى أثرها تولى رياسة التحرير فى « المؤيد » وصار له أصدقاء رأوا إخلاصه فى خدمة مصر فصاروا يفتحون صدورهم ودورهم للضيافة فيها. قال كرد علي: وكانت تتلخص خطتى فى « المقتبس » بنشر البحوث العلمية والأدبية والتاريخية والاجتماعية والتراجم للأعلام من السلف الصالح وكان ينقل من المجلات الغربية وبخاصة ما كان يخص الحضارة والاختراع وينقل بعض الروايات عن الفرنسية. كما كان ينشر المخطوطات العربية القديمة النادرة فجمع بذلك بين القديم والحديث وقد صدر من مجلة المقتبس ثمانية مجلدات وعددان من المجلد التاسع وانقطع صدورها فى الحرب العالمية الأولى ولم تعد إلى الصدور وقد سلمت تحرير الجريدة بعد وفاة أخى أحمد كرد علي وأنا فى الوزارة، إلى محرر أراد أن يخدم بعض الاحزاب على حسابى وبلسان جريدتى، وأطال لسانه فى بعض زملائى من الوزراء فأمرت بإغلاقها .

أما الخدمات الاجتماعية التى أدتها « المقتبس » فنافعة وشاقة. وحين انسلخت الشام من الدولة العثمانية، ودخلت الجيوش العربية سورية فى أعقاب الحرب العالمية الأولى قامت فى سورية حكومة عربية برئاسة الملك فيصل وحين بدأت فى تكوين إدارتها المدنية رأت من وسائل رقيها أن ينشأ فيها ديوان للترجمة والتأليف واصلاح لغة الموظفين وإدارة شؤون المعارف فعهد برئاسة هذا الديوان إلى محمد كرد علي وكان أعضاؤه فى أول أمره من الاساتذة أمين سويد وأنيس سلوم وسعيد الكرمي وعيسى اسكندر المعلوف وعز الدين علم الدين التنوخى ورأت الحكومة العربية أن تضم إلى الديوان دار الكتب الوطنية « المكتبة الظاهرية » كما وافقت الحكومة على قيام هذا الديوان بـإنشاء المتحف العربى فى دمشق فأهتم أعضاؤه بجمع ما تفرق فى أطراف البلاد السورية من الآثار القديمة والتحف التاريخية والزخارف البنائية الممثلة للفن العربى وخصصت الحكومة لهذا المجلس ميزانية تساعده على القيام بمشاريعه.

وعقد أول جلساته فى المكتبة الظاهرية عام ١٩١٩ وأخذ يوالى جلساته وجمع كتباً فى اللغات الفرنسية والانكليزية والالمانية، جمع منها كتباً قيمة إلى جانب تماثيل حجرية و أوانٍ معدنية وزجاجية وخزفية ومجامع نقود ذهبية وفضية ونحاسية وأسلحة وصفائح حجرية وغيرها وفى ٨ حزيران عام ١٩١٩ أصدر الحاكم العسكرى على رضا الركابى أمراً يقضى بتسمية « ديوان المعارف » المجمع العلمى

العربى فى دمشق وذلك استجابة لرغبة محمد كرد علي رئيس الديوان بعد أن عين ساطع الحصرى رئيساً بدلاً من كرد علي وكان من أمانى كرد علي قيام المجمع العلمى الذى نبتت فكرته فى نفسه عام ١٩٠٩ حين زار فرنسة ورأى ماقام به مجمعها فى باريس من خدمات للغة والثقافة. وتكونت هيئة المجمع فى دمشق من سبعة أعضاء والرئيس كرد علي وانضم إليهم الشيخ طاهر الجزائرى بعد عودته من مصر إلى الشام مريضاً بالربو واختار المجمع بدلالة رئيسه ومعرفته أعضاء مراسلين نافعين من البلاد العربية وبعض المستشرقين. وقد بذل هذا الرئيس جهده لنجاح المجمع وأنشأ له مجلة تعبر عنه فى مقالات رئيسه واعضائه وكان ذلك عام ١٩٢١.

ولقى الرئيس صعوبات جمة فى تذليل العقبات التى كانت تعترض المجمع ومنها حملة بعض النواب عليه وادعاؤهم بأنه لا نفع من المجمع لكن صيحات من سعد الله الجابرى وفارس الخورى وغيرهما أسكتت الناقمين ـ ولما صار كرد علي وزيراً للمعارف اقترح أن يكون رئيس المجمع الأمير شكيب أرسلان غير أن اقتراحه لم يلق قبولا.

وأقام المجمع حفلات تكريميه للشعراء حافظ ابراهيم وأحمد شوقى وخليل مطران كما أقام حفلاً تكريميا للناشئين من الشعراء أولهم زكى المحاسنى وأنور العطار وجميل سلطان وعبد الكريم الكرمى.

وعكف العلامة محمد كرد علي على التأليف فقد نصحه صديقه رفيق العظم بأن ينصرف إلى التأليف الكبير دون المجموعات الصغيرة ومثله قام جرجي زيدان بنصح كرد علي بأن يترك الصحافة وينصرف إلى تأليف الكتب وقد استطاع أن يقدم من المؤلفات مايأتي:

خطط الشام

غرائب العرب

القديم والحديث

أقوالنا وأفعالنا

الحضارة الإسلامية فى عز العرب

الرحلة الأنورية

غوطة دمشق

دمشق مدينة الشعر والسحر

وكان يتتبع ما قال المستشرقون عن الدين الاسلامى فإذا دعى إلى مؤتمراتهم ذهب إليها وناقش الاعضاء مناقشة لبقة حكيمة.

وكان لكرد على صداقة مع مستشرقين غير متحيزين ولامتعصبين ومنهم اختار للمجمع أعضاء مراسلين ولقى منهم استجابة كريمة.

obeikandl.com

ومن مؤلفاته التى أحبها كتابه « كنوز الأجداد » صدره بمقدمة ثم ترجمة لحياة استاذه الشيخ طاهر الجزائري ومن التحقيق فى التراث كان له: البيزرة؛ الاشربة؛ المستجاد من فعلات الأجداد. وله أيضاً كتاب أمراء البيان ورسائل البلغاء. وبعد غيابه عن الدنيا وجد ولده طريف بين الورق المخطوط كتاباً مخطوطاً عن « المعاصرين » تحدث فيه عمن عرفهم من كبار الرجال فى مصر وسورية ولبنان.

وفى أعوامه الأخيرة غدا شيخاً مريضاً وكان يكتب المذكرات فحفزه دساسان من دمشق وحلب ليطعن فى ثلاثة من الأدباء المصريين الكبار فاستجاب لهم وخشى إذا ذهب لحضور مجمع فؤاد الأول للغة العربية أن يلقى عتباً وغضباً فتقاعس عن السفر ولولا الدكتور زكى المحاسنى وزوجته وداد سكاكينى لتقدم الغاضبون باقتراحهم، ومع ذلك فقد وقف الدكتور منصور فهمى مؤنباً كرد علي فى حفل تأبين أقامه مجمع مصر لبعض الأعضاء الراحلين ولاذ بمزرعته فى الغوطة التى أحبها وعاش أكثر شهور العام فيها مع الفلاحين والطيبين من أهلها.

ولا ينسى الذين استمعوا لآخر محاضرة ألقاها فى مجمع اللغة العربية وكان عنوانها « الالفاظ المستحدثة فى اللغة العربية » كيف ارتفع صوت عباس محمود العقاد قائلاً: ولله المثل الأعلى فتوقف كرد علي مبهوتاً مبثوتاً ثم تابع كلامه.

وقد عجب الذين قرؤوا اعترافه بالخطأ فيما كتب عن أنداد

وأصدقاء له ما رأى منهم شراً ولا نكرا... لكن الدساسين اللذين تشردا فى البلاد لقيا جزاء الفتنة التى أوقداها عند الرئيس.

ومن عجب أظهره بعض الذين عرفوه حين ترك مزرعته لولديه فى جسرين وترك بيته فى دمشق لبناته! وقد تساءلوا عن الحكمة فى هذا التصرف.

وحين أصابه المرض واشتدت الشيخوخة لازم بيته فى دمشق حتى توفاه الله يوم الجمعة الرابع من نيسان عام ١٩٥٣ فبكته دمشق التى أحبها وتفانى فى خدمتها وقد دفن فى مقبرة « الباب الصغير » بجوار معاوية فى قبره وابنه على الضريح العجلانى الأديب وبموته خسر العالم الإسلامى والعربى عبقرية شامية لا تنسى.

* * *